ذكرى من رسول إيران في لبنان

د. عبّاس خامه يار*

في الذكرى السنوية الثالثة لرحيل "فيكتور الكك" الكاتب اللبناني المتخصّص بالفارسيّة، ذهبنا، أنا وزوجتي، مساء الجمعة ٢٧ ك١/ديسمبر ٢٠١٩، للقاء زوجته وأولاده في منطقة "الحازمية" المسيحيّة في شرق بيروت، وباركنا لهم ذكرى ميلاد النبي عيسى (ع) ورأس السنة الجديدة.

أوّل ما لفت أنظارنا كان بساطتهم، أدبهم وثقافتهم الشبيهة بالثقافة الفارسيّة، حيث إنّهم استقبلونا بتحيةٍ جمعت بين العربيّة واللكنة الفارسيّة الحلوة. إنّ عشقَ إيران وثقافتها متجذرةٌ في نسيجِ أسرة الدكتور فيكتور الكك، أستاذ قسم اللغة الفارسيّة في الجامعة اللبنانيّة، ويمكن استشعارُ حلاوة الآداب والتقاليد والأعراف الأصيلة الإيرانيّة- الإسلاميّة بين كلماتهم وفي سلوكهم.

زوجتُه وأولاده الأربعة الذكور هادي، جهاد، عماد وراني، كلُّ ما بقي من ذكرى ذلك العالِم الفقيد العاشق لإيران. في كلّ ركنٍ من أركان بيته الأشبه بالمتاحف، ثمّةَ آثارٌ للثقافة المشرقيّة خصوصًا الإيرانيّة، وصناعاتٌ يدويةٌ من مدن إيران المختلفة، تمّ تنسيقها بطريقةٍ تنمُّ عن ذوقٍ متفرّد. سألت: "أيُّ دورٍ كان للمرحوم فيكتور بهذا الديكور الجميل؟" أجابت زوجته: "في كلّ شيء، من انتقاء الأشياء، حتى شرائها وترتيبها".

---

* المستشار الثقافي للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة في لبنان

مكتبتُه المليئة بالأعداد الهائلة من الكتب والمراجع، مكتبُه الخاص وكرسيّه والطاولة حيث كان يكتب، مع تفاصيل تدلّ على أوائل القرن الماضي، كلّها عناصر شهدَت على التأليفات القيّمة لهذا الأديب البارز المتخصّص بمعرفة إيران. هذه المكتبة بقيت على حالها الأولى بعد وفاته، حفاظًا وتخليدًا لذكرى الدكتور فيكتور. إلى جانب شجرة الميلاد المزيّنة احتفالًا برأس السنة، كانت شهادة التقدير التي مُنِحَها قبل عامَين في مهرجان الخوارزمي، موقعةً من رئيس الجمهوريّة الإيرانيّ، تقديرًا لعطاءاته الثمينة في مجال اللغة والثقافة الفارسيّة.

منذ سنوات دراسته في جامعة طهران، كتب فيكتور الكك خواطرَ جميلةً عن عشقه الكبير لأستاذه العزيز "بديع الزمان فروزانفر"، وخطّ الكثيرَ عن دهشته وتأثّره بالشعراء الفرس البارزين لا سيما الخيّام، وفي قسمٍ من ذكرياته الحلوة خلال سنوات إقامته الطويلة في إيران، يروي الكثير عن الأطعمة الإيرانيّة لا سيما حكاية الفطور المتمثل بخبز "البربري" الساخن مع البيض المقلي.

في منزل فيكتور الكك، استحضرتُ ذكريات معرفتي به خلال مهمّتي الثقافية في لبنان في أوائل تسعينيات القرن المنصرم، وفي مهامي الثقافيّة اللاحقة في قطر والكويت. كان عدّةَ مراتٍ في ضيافتي، وفي البرامج التي كنت أنّظمها له، كنتُ أرى كيف أنّه يؤثّرُ في المثقّفين الحاضرين خلال البرامج الثقافيّة، بعلمه وأخلاقه ومعرفته، ويأسرُ قلوبَ الجميع بأدبه جاذبًا بحديثه الكثير من المخاطبين إلى عالم فكره المتبحّر بإيران، أهل البيت (ع) واللغة الفارسيّة.

وحدّثتُهم في منزل الأستاذ الفقيد عن الثلاثاء ١٤ آذار/مارس ٢٠١٧ الذي كان يوم تشييع جثمانه، وكيف أنّي وصلتُ بصعوبةٍ إلى بيروت، لأحظى بوداعه الأخير في الكنيسة المارونيّة في الحازمية ببيروت، إلى جانب زوجته، أولاده ومئات الأصدقاء. تذكرتُ ذلك اليوم حين شاركتُ في مراسم الدفن والعزاء في الكنيسة، محزونًا مفجوعًا، بكلمةٍ تأبينيةٍ عاطفيةٍ وحزينةٍ موجزة، نيابةً عن مركز بلادنا الثقافي.

في تلك الليلة من ٢٧ ك١/ديسمبر، وخلال السهرة التي طالت ثلاث ساعات في منزل المرحوم فيكتور، لمستُ إشارات التقاء الدين والثقافة الإسلاميّة –المسيحيّة،

ونظرًا إلى أنّه كان عالمًا بارزًا بإيران وأستاذًا كبيرًا في اللغة الفارسيّة ومن عشّاق الشاعر الإيرانيّ الكبير حافظ الشيرازي، فبالإمكان وصف روح المرحوم الجميلة التي كانت حاضرة في تلك الليلة ببعضِ أبياتِ الشيخ الأجلّ:

أسمعتَ يومًا بالحاضر الغائب؟ .... أنا هكذا بين الناس وقلبي في مكان آخر

إذا كان الحبيبُ في المجلس لا حاجة للشموع ....فأطفِئها، لأنّه بحضوره يُضيء المكان

كان البروفيسور فيكتور الكك مسيحيًّا؛ باحثًا ذكيًّا وعالمًا بإيران حقّ المعرفة، شاعرًا وأستاذًا لامعًا في اللغة الفارسيّة ومن الناشطين في مجال الأدب المقارن في جامعات لبنان. قبل ٥٧ عامًا، ابتدأ دراسته في مجال الأدب الفارسيّ في جامعة طهران، مستفيدًا من دروس أساتذةٍ مثل بديع الزمان فروزانفر، جلال الدين همائي، سعيد نفيسي، محمد معين، ذبيح الله صفا وبرويز ناتل خانلري.

إنّ علاقة الدكتور الكك باللغة الفارسيّة وآدابها لها حكايةٌ جميلة. ذكريات طفولته الأولى كانت الإصغاء إلى مناجاة الإنجيل التي كانوا يرددونها في الكنيسة عن الزرادشتيّين المبشّرين بالمسيح، فكانت أسئلته الأولى من هم الزرادشتيون ومن أين أتوا؟

حينما أصبح طالبًا متفوّقًا في دار الحكمة في لبنان، تمّ إهداؤه كتاب رباعيّات الخيام باللغتَين الفارسيّة والعربيّة، وفي طريق العودة إلى المنزل، قرأه بالكامل وحفظَ عدة رباعيّاتٍ عن ظهر قلب. منذ ذلك الوقت، قرّر أن يضعَ قدمًا في طريق معرفة هذا الأدب وهذه الثقافة وينخرطَ بكلّ وجوده في تعلّم اللغة الفارسيّة ومطالعة روائع الأدب الفارسيّ.

خلال مرحلة الدراسة الجامعيّة، وبعدما بلغ مستوى التفوّق في اللغة العربيّة وآدابها على يد كبار أساتذة الأدب العربيّ مثل "فؤاد البستاني"، بدأ التعلم على يد العلّامة "محمد ملايري" وسافر إلى إيران لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة الفارسيّة وآدابها.

موضوع أطروحة المرحوم الدكتور الكك كان "تأثير اللغة والأدب والثقافة العربيّة

في أشعار منوجهري دامغاني وشعراء القرن الرابع والخامس الهجريَّيْن في إيران". في هذه الرسالة، دراسةٌ عميقةٌ لتأثير القرآن والحديث النبويّ وفنون الشعر العربيّ من قبيل العروض، في شعر منوجهري وباقي شعراء القرنَين الرابع والخامس الهجريَّيْن.

كان أساتذته يعدّونه طالبًا متفوّقًا من كلّ النواحي، وكانوا يتمنّون بقاءه في جامعة طهران، إلّا أنّه عاد إلى لبنان ليكونَ بذلك رسولَ اللغة الفارسيّة وآدابها في دياره.

كان الكك اللسانَ الناطق والمعبّر عن ثقافة إيران وآدابها وحضارتها. كان عشق إيران متجذّرًا في وجوده حتى صار مبلّغ إيران في المحافل العلميّة والأدبيّة والمجامع الثقافيّة في العالم طوال سنواتٍ وفي أشدّ الظروف قسوةً. في ك١/ديسمبر ٢٠٠٥، أعلنَ في جامعة طهران التي تعدّ مهدَه العلميّ، وبصوتٍ عالٍ وصراحةٍ كاملة كان يمتاز بها دائمًا، قائلًا: "أنا ابنُ لبنان، لكن وطني الروحيّ إيران".

كان فيكتور يرى نفسه رسول إيران الأصيل في لبنان، كذلك كان يعدّ نفسه رسولًا للثقافة يحترم الإنسان ويحمل رسالة المحبة. لقد قال ذلك في ت١/أكتوبر ٢٠١٣ في مراسم تكريمه في جامعة طهران تقديرًا لسنوات عمره التي قضاها في الجهاد العلمي.

انبهارُه الواعي والحكيم بإيران بلغَ حدًا عظيمًا حتى أنّ "سليم دكاش" رئيس جامعة "القديس يوسف" قال في كلمته ضمن مراسم تكريمه في الجامعة اللبنانية: "يُعجبُني عشقُكَ لإيران والثقافة الفارسية! حينما تتحدثُ عن إيران تبدو وكأنك تتحدثُ عن قطعةٍ من جسمكَ وروحكَ ونفسك. حينما تدعوني لزيارة إيران البلد الحضاري والتاريخي الكبير، تقولُ إنّ الشخص الذي لم يقم بزيارة بلاد فارس مرةً واحدة على الأقل؛ لا سيما إن يكن لبنانيًا -وثمّة روابط حميمة ومعنويّة ودينيّة بين البلدين- فإنّه سيشعرُ بنقصٍ ما؛ إنّ علاقتكَ بإيران ليست مسألة مصالح سياسيّة واقتصاديّة؛ وإنّما هي ثمرة العشق والمحبّة التي تحملها في شغاف قلبك لهذا البلد".

فيكتور الذي كان مبهورًا بثقافة إيران وحضارتها وثقافة شعبها، وكان رسول السلام والحوار والتبادل الثقافيّ بين إيران والعالم العربيّ، ظلّ دائمًا يذكّرُ مخاطبيه العرب

بحرصٍ ومحبة قائلًا: "يجب أن لا نسمح للجو السياسيّ الملوّث هذه الأيام ومؤامرات أعداء الثقافة أن تؤثّر على علاقاتنا الثقافيّة نحن العرب مع الإيرانيّين، وأن تحرمنا من ثمار هذه النعمة الإلهيّة. الثقافة الفارسيّة هي ثقافة الحضارة، الأدب وبناء الذات الإنسانيّة وعلينا أن نعرفَ قدرَها".

هذا الأستاذ الفقيد، كان يعدّ التلاقح بين الأدبَين الفارسيّ والعربيّ "ملحمةً ثقافيةً مشتركةً لم يعرف التاريخُ مثيلًا لها من قبل". أحيانًا كان يتوجّه إلى عالم الفكر العربيّ مخاطبًا: "يجب أن لا نسمح للروتين السياسيّ والتسييس الشائع أن يتركَ أثرًا على الثقافة. الثقافة الإيرانيّة هي ثقافة الحضارة البشريّة، الغنيّة بالقيم الإنسانيّة التي ينبغي الحفاظ عليها".

لقد كان المرحوم فيكتور الكك على مستوى الخُلُق والسلوك والميول، أشبه بالكتّاب المسيحيّين المثقّفين من جيله، سليمان كتّاني، جورج جرداق وجوزيف الهاشم، في تأثّره بالقيم والثقافة الإسلاميّة ولم يكن يتصوّر أحدٌ بأنّه مسيحيّ. لقد كان شغوفًا بالثقافة الإسلاميّة، حتى إنّه تركَ قصائد غنيةً في مدح ورثاء خاتم النبيين (ص)، أمير المؤمنين (ع) وسيد الشهداء (ع) وكذلك في الثناء على الإمام الثامن (ع).

كان يختتمُ لقاءاته في إيران بزيارة الإمام الرضا (ع) وقد قال في هذا: "أنا مسيحي، لكن لأنّ الإسلام يتعامل مع أتباع الديانات الأخرى بحريةٍ كاملة حتى أنّ الإمام الرضا (ع) دخل في مناظرةٍ مع صاحب أكبر مقامٍ في المسيحيّة في زمانه، فإنّ هذه المسألة جعلتني أنجذبُ إلى شخصية هذا الإمام الهمام".

لقد كان العضو المسيحيّ الوحيد في اللجنة الدوليّة لمهرجان الإمام الرضا (ع) الثقافيّ، وقد كان قبل وفاته بعامٍ واحد، ضيفًا في المهرجان المذكور في مشهد المقدسة بصفته "خادمًا للإمام"، وعدَّ خدمة الإمام الرضا (ع) أعظم هديةٍ له في حياته. في الوقت ذاته، توسّل إلى الإمام الرؤوف من أجل تحقّق هدفه الإنسانيّ، وكلّه أملٌ في أن يكون الإمام الرضا (ع) "رمزًا لتفاهم العرب مع إيران".

كان فيكتور يقول: "من أجل الحفاظ على سيادة بلداننا، نحتاج إلى هذا النوع

من التقارب، وإلّا فإنّ الغرباء سوف يستغلّونَ هذا الشرخَ بين هاتَين الثقافتَين. خلال السنوات الأخيرة من حياته قام بزيارةٍ معنويّةٍ مثمرة إلى كربلاء المقدّسة وإلى النجف الأشرف.

إلى جانب شهادتي الدكتوراه في الأدبَين الفارسيّ والعربيّ، كان يحمل شهادة الدكتوراه في الفلسفة من فرنسا كذلك. في ما يتعلّق بالفلسفة الإسلاميّة وتأثير الثقافة والأدب الإيرانيّ عليها، كان يعتقد، على الرغم ممّا هو متعارف عليه، بأنّ "الفلسفة الإسلاميّة تفتقد للروح اليونانيّة على الرغم من كونها اقتبست عن فلسفة اليونان، غير أنّ روح الفلسفة الإسلاميّة إيرانيّة، وكبار الفلاسفة الإسلاميّين كانوا إيرانيّين وشيعة".

المرحوم الكك، كان إلى جانب رسائل الدكتوراه الثلاث، يتقن الفارسيّة، العربيّة، الإنجليزيّة والفرنسيّة بطلاقة، وقد تعلّم في جامعات أمريكا، كندا، لبنان، فرنسا وجامعة طهران. لديه أكثر من ٢٠ كتابًا، مئة بحثٍ في المواضيع الأدبيّة المختلفة، اللغة، الفلسفة والعرفان، ويمكن القول إنّه حقًا دائرة معارف دواوين كبار الشعراء الإيرانيّين.

كان الكك لسنواتٍ رئيس "التجمع الثقافيّ العربيّ"، قام بعد انطفاء شعلة الحرب الداخليّة في بلاده، بإعادة إحياء ذكرى أستاذه الحبيب محمد ملايري، وأسّس "مجلّة الدراسات الأدبيّة" المحكّمة عن الجامعة اللبنانية، والتي تتناول الثقافة الإيرانيّة- العربيّة وتأثيرهما المتبادل، حتى إنّه حمل هاجس انتشارها واستمراريّتها إلى آخر حياته وحتى على سرير المرض، حيث كان يعدّها هويته الخاصة. ومن مسؤوليّاته الأخرى رئاسة مركز تعليم اللغة الفارسيّة وآدابها في الجامعة اللبنانيّة.

يقول فيكتور: "قصتي مع اللغة الفارسيّة قصةُ عشقٍ عمره نصفُ قرنٍ من المعنويّة والجماليّات التي تختص بها ثاني لغةٍ في العالم الإسلامي". ويقول في مكانٍ آخر: "أنا مدمنٌ على قراءة أشعار مولانا منذ ٤٥ سنة".

في أثناء قراءة المثنوي كان ينتابه إحساسٌ وكأنّه خرج من ذاته وكان يقول عن تلك الحالة: "ما يمتاز به الأدب الفارسيّ هو الناحيّة الإنسانيّة التي لا تقيم أي اعتبارٍ

لاختلافات الأعراق والأديان، لا بل إنّها تخاطب الإنسان من حيث هوإنسان في أيّ برهةٍ زمنية وأيّ مكان، لأنّ للإنسان قيمةً أساسيةً في الحياة، وهذه الميزة تظهر جليّةً لدى أغلب الشعراء الفرس لا سيما في أشعار سعدي، حافظ، مولانا، وآخرين من الشعراء والعرفاء الإيرانيّين".

باعتقاده إنّ الشعراء الفرس تخطّوا حدودَ احترام حقوق البشر، إلى أن يتعاملوا حتى مع الحيوانات بمحبةٍ ورفق، لاعتقادهم بأنّ كل ما يخلقه الله هو مقدسٌ وحرّ، وهذه الميزة لا نراها في الأدب العالميّ إلّا في ما ندرَ من الحالات. وبهذا الخصوص ثمة مئاتٌ من الأبيات لشعراء كثيرين، تؤكّد هذا الأمر، مستشهدًا ببيت سعدي الشيرازي الشهير:

لا تترك النملة التي تحملُ الذرات..... فلها روحٌ وروحها حلوةٌ عزيزة

حول الإمام الخميني (قده) وأشعاره العرفانيّة، كان فيكتور الكك يؤمن بأنّ: "الإمام الخميني كان هومن فتح طريقًا جديدةً في مقولة العرفان، حتى أوصلها إلى العملانيّة مثلما فعل الكبار أمثال الخواجة عبدالله الأنصاري، فكما كان الشيخ الأنصاري يعتقد بأنّ العرفان هوجهادٌ وسلوكٌ في طريق الله وليس انفعالًا وعزلة؛ كذلك اعتقد الإمام بأنّ العرفان هوأن يكون للإنسان حضورٌ في المجتمع، أن يشكّل أسرةً ويؤدّي مهامه في المجتمع. فكما أنّ الإمام الخميني أعاد للعرفانِ مفهومه الأصليّ، فقد أضاف إليه بُعدًا جديدًا هوبُعد الجهاد ومجاهدة النفس التي تعدّ الجهاد الأكبر.

آخر جهود فيكتور كان ترجمة مجموعةٍ من القصائد الفارسيّة المختارة منذ البداية وحتى اللحظة إلى اللغة العربية ونشرها تحت عنوان "عيون الشعر الفارسي". قبل عامٍ من وفاته، قال ضمن لقاءٍ مع ناشطي بلادنا الثقافيّين: "أحملُ في صدري ثقل حسرةَ لقاء قيصر أمين بور".

تبًّا كيف أنّ الأوانَ يفوتُ سريعًا على غفلة! واليوم بعد مرور ما يقارب ثلاث سنوات على فقدانه، ها أنا أحملُ في صدري بل ها نحن نحملُ ثقلَ حسرةِ اللقاء؛ لقاءٍ آخر مع فيكتور.